جدلية الحوار والصراع في بداية القرن الواحد والعشرين

بقلم: الأستاذ الدكتور عمار الطالبي
أستاذ التعليم العالي ـ جامعة الجزائر

يبدو أن التفاعل بين الحضارات قانون اجتماعي تاريخي ساد ظهور الحضارات وتطورها، وهذا التفاعل السلمي الذي يمكن أن نسميه حوارا صامتا ظاهرة واضحة لا يمكن نكرانها، يظهر في التأثير والتأثر بين الثقافات واللغات، والأشياء التقنية، والتجارية، وفي انتقال الأفكار ورحلة الفنون والعلوم من حضارة إلى أخرى، كما تشهد بذلك مثلا الألفاظ المختلفة التي توجد في لغة واحدة كاللغة الإسبانية أو اللغة الفارسية أو الأوردية التي اقتبست من العربية، لاعتناء أهل هذه اللغة أو تلك من الشعوب الإسلامية بالقرآن والحديث النبوي .

وكانت طليطلة، وقرطبة، وصقلية، والقيروان، وبغداد والقاهرة مراكز للحوار الحضاري، وتفاعل الثقافات وتلاقح الأفكار .

لكن يبدو من خلال التاريخ أيضا أن الغرب عموما يميل إلى الصراع مع الناس ومع الطبيعة أكثر من ميله إلى الحوار والتفاعل الهادئ السلمي، من عهد الإسكندر الأكبر اليوناني، إلى الرومان، إلى الاستعمار الحديث، إلى الحربين العالميتين اللتين أوقد الغرب نارهما.

ثم جاء أخيرا المفكر الاستراتيجي الأمريكي، ليُشرِّع للصراع، ويُنظِّر له، ويجعله أمرا مشروعا علنا، ألا وهو هانتنجتن صمويل سنة 1993[1]، فتوقع أن إيقاع نار الحرب بين الحضارة اليهودية ـ المسيحية، والحضارة الإسلامية ـ البوذية ـ الكونفوتشيوسية، ضرورة، وذلك أنه لما انهار الاتحاد السوفياتي الذي كان يمثل الخطر الشيوعي، بقي الميدان فارغا، فتعين البحث عن عدو جديد، فرأى في العالم الإسلامي مرشحا جديدا وعدوا مصارعا، لأنه عالم تكمن فيه قوة استقبالية من ناحية عدد السكان، فإن النمو العددي للمسلمين هو أكثر من أي نمو في أي دين

---

[1] ـ في بحث له نشرته مجلة "فورين أفيرز" (FOREING AFFAIRS) العدد 3، مجلد 72، الصادر في صيف 1993 . واشنطن دي سي.

اخر[2]، بالإضافة إلى من يدخلون فيه من الأمم الأخرى ومنهم من ينتمي إلى العالم النامي المتحضر نفسه، ولأن الوعي السياسي أخذ يتنامى فيه كما يتنامى التقدم العلمي، وخاصة بعض الدول الإسلامية الآسيوية، وإن بقيت كما هو واضح قيادة الحضارة العلمية والتقنية في غير المسلمين مع ما يسودهم من الانقسام والتبعية الأمر الذي ما يزال يكبلهم بأغلالها.

وأكد هذا النزوع نحو الصراع (فوكاياما) المفكر الأمريكي من أصل ياباني الذي توقع اكتساح الرأسمالية أو الحضارة الغربية للعالم كله، وظن أن الحضارة الغربية هي نهاية التاريخ، وأكبر دليل على ذلك انهيار الاتحاد السوفياتي، فعلى العالم كله أن يندمج في الرأسمالية وهو ما يسمى بالعولمة .

وإن كان هانتنجتن لم يصل إلى اليقين الذي وصل اليه فوكاياما من أن انتصار الحضارة الغربية على العالم كله ضرب من الحتمية، ولعل هانتجتن أقرب إلى الصواب، لأن ما يتصل بصميم المشاعر والعقائد والأنماط الثقافية المتأصلة لا يمكن محوه بهذه الطريقة.

ويرى (مراد هوفمان) أن همّ هانتجتن إنما هو حماية الثقافة الغربية مما يمكن أن يؤثر فيها مثل الصحوة الإسلامية وهذا الأمر ليس جديدا في تاريخ الغرب فإن (ماكس فيبر) مثلا نظر إلى الإسلام على أنه: "دين حرب"، كما يرى بعضهم[3] أن الثقافة الإسلامية: "كيان لا يشاركنا تطلعاتنا الأساسية".

بل إن هذه النظرة المريبة للإسلام تمتد إلى أيام فولتير وهيجل إلى أن جاء هانتجتن وسار في هذا الاتجاه، بيد أنه عندما زار السعودية أدرك تماما – فيما يبدو – أن الإسلام ليس له قدر من العنف يزيد على ما يتصف به أي دين اخر[4].

[2] – هشام نشابة: "حول موضوع مستقبل الإسلام في القرن الواحد والعشرين" ضمن: "مستقبل الإسلام في القرن الهجري الخامس عشر"، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي: أبحاث الدورة الثانية عشرة للمؤتمر، عمان، الأردن 1423هـ/ 2002 م.

[3] – غوستاف فون غرينباوم، نقلا عن مراد هوفمان في بحثه : "الحادي عشر من أيلول ونظرية صراع الحضارات " ضمن مستقبل الإسلام في القرن الهجري الخامس عشر ص 6

[4] – سيتوكاك ظفري :"بين الشرق والاستشراق" صحيفة DIEZIET ،هامبورج ،ألمانيا 26 ماي 1990 نقلا عن مراد هوفمان ص7.

ومن أسباب نظرة الغربيين إلى أن الإسلام خطر؛ هجرة المسلمين إلى الغرب، ولذلك يسعى الغربيون عموما إلى الحد من هذه الهجرة، ويتوجس بعضهم منها، وإن كان (بريبيانتي)[5] يرى أن التقارب بين الكاثوليكية والإسلام أمر واقع يمكن توسيعه ومعنى هذا أنه يتجه إلى الحوار لا إلى الصراع.

ولعل أحداث 11 سبتمبر 2001 برهان يؤكد ما ذهب إليه صمويل هانتجتن، وبذلك أصبح بوش الرئيس الأمريكي يصيح: المسألة الآن مسألة "نحن" و"هم"، الخير والشر، من ليس معنا فهو ضدنا! هذا النزوع إلى الصراع سيطر عليه تماما.

اتهم الإعلام الأمريكي وغيره الإسلام بالإرهاب واتجه القادة الأمريكيون أكثر إلى اعتبار دولتهم دركيا على العالم، واستولى على عدد من المسؤولين هوس الحرب والانتقام وضرب أي دولة في أي مكان، وكما يرى (مراد هوفمان) فإن القادة الأوروبيين ـ باستثناء رئيس حكومة بريطانيا ـ أكثر تعقلا ورزانة، نجد (جوها نيس راو) رئيس الاتحاد الألماني يسرع إلى القول[6]: "السلام ثمرة العدالة"، إن الظلم هو الذي يدفع إلى الانفجار، وإلى المقاومة، حتى إذا كانت هذه المقاومة عمياء لأن أصحابها لم يجدوا سبيلا آخر غيرها فأصابهم الإحباط. وما تزال المظالم التي ترتكبها إسرائيل في فلسطين من المذابح وهدم الديار ،وجرف البساتين والزروع، والاغتيال بالصواريخ والطائرات، يكّون مادة من المظالم لا تلبث أن تنفجر على من ارتكبها، وتتحول الذات المقهورة إلى قنابل بشرية.

ولعل إسرائيل والغرب عموما ينسون أن نفسية المسلم مطبوعة على رفض الذل ودفعه، وأنها لا ترضى بالهوان مهما يعظم جبروته، ولا يزيده القهر إلا مضيا في سبيل الدفاع، وإن أذى المر إلى التضحية بروحه، وداره . وما يجري في فلسطين اليوم أقوى برهان على ذلك.

ومن الجانب الثقافي فإن الهجوم على العالم الإسلامي يوميا لا يتوقف، في وسائل الإعلام المختلفة، وقد أبان عن هذا حتى بعض القادة السياسيين الإيطاليين أنفسهم.

---

[5] ـ أستاذ في العلوم السياسية متقاعد في كلية هانتجتن ،وهو صديق حميم لباكستان.

[6] ـ جوابا عن سؤال : لماذا حدث ما حدث في 11 سبتمبر 2001 .

وهذا النزوع للحرب والتدمير يظهر جليا في موقف (بوش) ومساعديه من العراق الذي استجاب لعودة المفتشين ولكن هذه الإدارة لا يقنعها شي سوى العدوان والتدمير لشعب طال عناؤه، وعظم بلاؤه من الحصار ومن الأمريكان والبريطانيين الذين لم يتورعوا عن الإضرار بالأطفال الأبرياء والشيوخ بدعوى أسلحة التدمير الشامل التي لم يقم على وجودها دليل، وسكتوا عن أسلحة التدمير الشامل لدى إسرائيل التي قام عليها الدليل في العالم أجمع.

ولعل هذا مزاج صراعي دموي حربي هدمي عدواني يصيب القادة الذين يشعرون بالقوة، ويتباهون بذلك كالنسر الذي ينشر ريشه في الفضاء "يحكي انتفاخا صولة الأسد"، ولا يلتفتون إلى أن عاقبة استعمال هذه القوة والتدمير هي التي تولد الكراهية والحقد ثم التدمير أيضا، لأن التاريخ لم ينته، والاغترار بالقوة لا يدوم، فأين قوة جيش الاتحاد السوفياتي؟ هل أنقذه من الانهيار؟.

إن العالم الإسلامي اليوم أصبح أشد كراهية للولايات المتحدة الأمريكية، لحمايتها إسرائيل سياسيا وعسكريا وماليا، وهي تدمر وتحتل وتغتال شعبا أعزل احتلت أرضه وسلبت حريته بأسلحة و أموال أمريكية.

ومن الغريب أنه في القرن الماضي كانت حركات التحرير، تجد مساندة، لأنها تقاوم المحتل، وتنشد حرية أوطانها، ويفتخر الغرب بأنه يؤيد الحرية و التحرير ، فإذا به في أوائل هذا القرن تنقلب هذه الحقيقة وتوسم بأنها إرهاب، وبذلك تصبح حركة التحرير الفلسطيني في هذا التصور الجديد إرهابا، ويوصف التدمير والقتل والاغتيال الذي تقوم به إسرائيل بأنه مقاومة للإرهاب، إنه لمنطق مقلوب، ومسخ للعقل، في هذا القرن الجديد، فمن يملك القوة يملك أن يقلب الحقائق ويزيف التاريخ ويبدع بدعة منطق مناسب لهواه.

ونحن نسمع يوميا الإدارة الإمبريالية في هذه الأسابيع تعمل على إيقاد نيران الحرب في كل ناد، وتدعو إليه من لا يوافقها في هواها، ولاشك أن الصهيونية العالمية ضالعة في الإعداد لهذا الوقود، وتظهر الإدارة الأمرلية في الواجهة لتضرم نيرانها، و تنفخ في وقودها، و تعمل على إسكات كل من تسول له نفسه مقاومة الاحتلال و التبعية و الإذلال .

بل إن الإستراتيجية الأمرلية التي وضعت في التسعينيات كانت تخطط للضرب المؤسسات الإسلامية الخيرية و المالية و التعليمية و التشكيك في مناهجها، و تحاول أن تغير هذه المناهج لتكون تبعا لهواها، و

تصف بعض الدول الإسلامية بأنها محور الشر، ونسي هؤلاء الأمريكان تمجيدهم للحرية، ورفع شعار الديمقراطية و الشرعية الدولية، وحقوق الإنسان، إنها لمفارقة ومنطقها اللامنطق.

ويبدو أن الولايات المتحدة تريد بأي طريقة تصفية حساب مع أنظمة لا تروق لها، ولو أدى ذلك إلى تدمير الشعوب، وتدمير آثار حضارية لا تقدر بثمن، إنها مدينة بغداد وآثارها العظيمة، بكن الاستيلاء على الخيرات يبرر كل شئ، وكانت بريطانيا بالأمس القريب تحتل العراق وفلسطين وتنهب خيرتها و اليوم يصرح أحد أعضاء البرلمان البريطاني "وينستون تشر شل" حفيد تشر شل الشهير منزعجا من هجرة المسلمين إلى بريطانيا " أنه بعد خمسين سنة سيدعو المؤذن المؤمن بالله على مآذن المساجد في شارع هاي سنتريت" . ويأتي زعيم الجبهة الشعبية في فرنسا وينادي " بإيقاف أسلمت فرنسا " كما صرح قائد الجناح اليميني في الحزب الجمهوري في ألمانيا " فرانس شون هوبر" "لن ترفرف راية الإسلام الخضراء في سماء ألمانيا أبدا"، وجعل الحزب التقدمي الدانمركي شعاره الانتجاي " الدانمارك بدون مسلمين" وتناسى هؤلاء أن عددا كبيرا من العقول العلمية المتميزة توجد بين هؤلاء المهاجرين و لا ينكر نشاطهم في تنمية هذه الأوطان التي تنزعج من المهاجرين، وحاجتهم إليهم أكيدة وواضحة.

بيدا أننا نسمع صوتا آخر لا يحمل شعار الحرب و الرفض للآخر، ولا شعار الكراهية مثل صوت" بريا تني و الف كما أشرنا إلى ذلك حيث يرى أن الإسلام يحمل قيما حركية، ويمكن له بهذه القيم أن يشارك في إصلاح العالم من انحداره الأخلاقي، ليحقق رسالته القرآنية"[7].

فالعالم الغربي واقع كما صرح بذلك في أزمة أخلاقية، و يرى أنه من الممكن التعاون بين الكنائس المسيحية و الإسلام لما يوجد بينها من قيم مشتركة، و إن كان قد ذهب إلى آراء غربية مثل هجومه على الاجتهاد، و المقارنة بين القرن الخامس عشر المسيحيين، والقرن الخامس عشر الهجري، في توفر عوامل الإصلاح الديني في نظره مع الفوارق الواضحة في ذلك.

إن ظاهرة الإرهاب ظاهرة سياسية بالدرجة الأولى لا تنسب إلى دين معين، كما يحاول الإعلام الغربي أن يلصقه بالإسلام و المسلمين، كما

---

[7] ـ بريبانتى رالف، الإسلام و الغرب السبب المشترك للصراع، المجلة الأميركية للدراسات الإسلامية الاجتماعية المجلة 16، العدد الأول ربيع 1999.

أن المقاومة ظاهرة اجتماعية سياسية، تنشأ أيضا كما أشرنا عن تراكم المظالم و الإذلال. وما يزال يعيش في أذهان بعض الغربيين أن الإسلام انتشر بالسيف، وهذا يعود في جذوره إلى أسطورة العداء في العصور الوسطى المسمية إلى تزوير التاريخ .

وإننا نعجب من الغرب وخاصة الأمريكان لماذا لم يسموا المتمردين الإرهابيين في جنون السودان إرهابيين ؟ بل يساعدونهم، ولماذا لم يصفوا الجيش الجمهوري في ايرلندا بأنه إرهابي بل إن "كلينتون" أعانهم، وأذن لهم بجمع التبرعات في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وكذلك القول في بلاد الباست وكورسيكا؟

ولماذا يسارعون ويهبون هبة واحدة لفك استقلال تيمور الشرقية من دولة إسلامية كبرى مثل إندونيسيا ويؤيدونهم بكل أنواع التأييد في أمد قصير؟

وسكتوا عما يرتكب في حق الشيشان، وهو شعب يدافع عن استقلاله ووجوده، ثم يهاجم شعب أفغانستان في مدنه باسم الإرهاب. لم يفعلوا هذا إلا وسكتوا عما يرتكب في حق الشيشان، وهو شعب يدافع عن استقلاله ووجوده، ثم يهاجم شعب أفغانستان في قراه وفي مدنه باسم الإرهاب. لم يفعلوا هذا إلا في يوغسلافيا لأنهم يريدون أن يحاصروا روسيا، وأن يستوعبوها، فلا تكون موضع خطر في أوربا .

نحن المسلمين لا نرى ضرورة الصراع بين الحضارات ولا أن التاريخ قد بلغ نهايته، ولا نرى إيقاف حركة الاجتهاد، بل الأولوية عندنا للحوار، ولا يلجأ للصراع إلا للدفاع عني النفس و الأدلة من القرآن و السنة أكثر من أن تحصى، ونرى أن العاملين على تعميق الحقد الغربي على الإسلام و المسلمين لا يدفعهم إلى ذلك إلا الصهيونية العالمية التي تحالف معها بعض المسيحيين الأصوليين، فعمدوا إلى مهاجمة المساجد و المراكز الإسلامية والتضييق على الأقليات الإسلامية من يؤدي إلى إشعال حرب نفسية وإلى تصدع في القلوب. إن الإسلام ينتمي إلى منهج الحوار ومنطقه حوار الحضارات و النفقات و الأديان، إن منطقنا الآن منطق البقاء، ولا نرى منطق القوة إلا قصير العمر، فالغطرسة و الفرعونية وغيرهما من نزوات الاستكبار في الأرض لا يكتب لها البقاء طويلا، إنما البقاء للعدل، الذي ينبغي أن يكون هو ميزان منظمة الأمم المتحدة التي يجب عليها أن تقوم بالإيفاء بهذا لتكون مرجعا عالميا على الحقيقة، لا أن

تستغل الولايات المتحدة الأمريكية الفيتو ضد المستضعفين في الأرض من أهل فلسطين، حماية الإرهاب إسرائيل و المساعدة عليه بأسلحتها الفتاكة .

إذا استمر الحوار بين عقلاء العالم من مختلف الشعوب و الثقافات و الأديان فإن ذلك يؤدي إلى رأي عام عالمي يخفف التوتر، والى السلام و الحب بين أبناء البشر جميعا.

إن اقتلاع جذور العنف ليتم إلا إذا رفع الظلم عن الناس، وخفف ما تعانيه البشرية من فقر.

وإذا كانت حوادث 11 سبتمبر 2001 تؤكد نظرية الصراع فإن هتلر الجديد "بوش" وما يبدو عليه من حدة مزاج، ودعوة إلى الحرب وسفك الدماء، دليل جديد على أن إدارته تريد أن تصبح دركا عالميا يمتد نفوذه وأثره إلى أي بقعة في العالم في أية لحظة، وهذا يؤكد أيضا أكثر نظرية صمويل هانتنجتن في ضرورة الصراع بين الحضارات، لأنه أعلم باستراتيجية الإدارة الأمريكية هنا، وساعد في يوغسلافيا لأنهم يريدون أن يحاصروا روسيا, وأن يستوعبوها، فلا تكون موضع خطر في أروبا .

و المسلمين لا نرى ضرورة الصراع بين الحضارات على ذلك ضعف العالم الإسلامي، واختفاء الغضب الذي يؤدي إلى التوازن في القوى الدولية.

وإذا كان المظلومون أيضا لهم إستراتيجيته ثابتة راسخة، وهي المقاومة و الجهاد للتحرر من هيمنة الأجنبي ، وتحرير البلاد المقدسة في الجزيرة العربية و فلسطين من القوات الأجنبية التي تهدد المسلمين في عقائدهم وثقافتهم، ووجودهم السياسي ولا يتوقف هذا الجهاد على مدى التاريخ المنظور، فإن النتيجة من ذلك كله ، أن الصراع واقع لا محالة، وهو يحتدم اليوم، ويشتد أواره، وربما أدى إلى نشوب حرب عالمية ثالثة نظرا للمصالح الكبرى التي تهتم دولا أخرى أيضا غير الولايات المتحدة في هذه المنطقة من العالم، منطقة العراق و القدس وما جاورها.

لقد شاهدت طفلا فلسطينيا على شاشة فضائية الجزيرة يقول " سأنتقم لأبي، و أكون شهيدا معه في الجنة " أمثال هذا الطفل كثيرون. وللقارئ الكريم أن يفهم من هذا ما يمكن فهمه، ولا يحتاج الأمر إلى تعليق .

إن الأمة الإسلامية تتميز في نفسيتها ومن خلال تاريخها أنها قد تفقد سيادتها، وتهدم مؤسساتها وتحتل أرضها، إلا أنها أمة لا تموت في روحها وأعماقها فهي تؤمن بأن العزة لله ولرسوله و للمؤمنين، وإنها لا يمكن أن تركن إلى الذل، إن أفلست قيادة لمقاومة خلفتها أخرى، وإن خاب جيل

أعقبه جيل يحمل الراية من جديد، وإن استشهد رجال صدقوا ما عـــاهدوا الله عليه أتى رجال آخرون يواصلون الرسالة حتى تبلغ حداها .

إن العداء للمسلمين قائم، يشتد مرة ويخف أخرى، ولكنه لم ينقطـــع، فعلى المسلمين أن يرفعوا مستواهم الحضاري لتتغير صورتهم ويصبحـــوا جديرين بالإعلام، و أن لا يفقدوا الرؤية الواضحة في هدا الضباب الكثيف الذي يحيط بهم من كل جانب .

عمار الطالبي
أستاذ بجامعة الجزائر
الجزائر في فاتح أكتوبر 2002 .